الفصل الثالث

كيف نستقي الخشوع في الصلاة من هدي النبي ﷺ

وهذا الفصل هو مقصود الرسالة، وفيه أبين ـ بإذن الله وفضله ـ كيف نخشع في الصلاة من خلال فهم هديه ﷺ، وسأبدأ بعرض هديه ﷺ ثمّ أذكر ما يؤخذ منه.

ـ كان ﷺ إذا فرغ من وضوئه قال: «**أشهد أن لا إله إلّا الله وحده، لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**» (رواه الترمذي وأورده الألباني في صحيح الجامع برقم: ٦١٦٧).

ويقول: «**سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك**» (السلسلة الصحيحة: ٢٦٥١).

وفي نطقه للشهادتين بعد الوضوء تنبيهٌ على استحضار نعمة الإسلام واستحضار فضل الله عليك أن جعلك مسلماً وشرع لك الصلاة، واستحضار فضل رسول الله

عليك فهو الذي علّمك شرائع دينك والتي أعظمها الصلاة.

وفي قوله «**لا شريك له**» تنبيهٌ على استحضار الإخلاص والحذر من الرياء من أول الاستعداد للصلاة.

وفي دعائه ﷺ بأن يجعله الله من التوابين والمتطهرين، وكذا قوله «**أستغفرك وأتوب إليك**» فيه التنبيه على أهمية استحضار الذنوب قبل الصلاة وأهمية تجديد التوبة منها. ومعلومٌ أنّ الرسول ﷺ كان إذا قال ذكراً أو دعاءً كان يقوله بتدبر وخشوع كما أنّه أمر من قاله بذلك، وإلّا فإنّ الله لا يقبل الدعاء عن ظهر قلبٍ غافلٍ لاهٍ ـ كما في الحديث الصحيح ـ ومن استغفر أو تاب بلسانه دون قلبه، فقوله قول ساهٍ غافلٍ. ولن يستحضر العبدُ ذلك بقلبه حتى يكون مقراً بذنوبه وخطاياه حقاً ومستحضراً لها على وجه الدوام، فكأنّ الرسول يُعلِّم المؤمنين أن يكونوا دائمي المراجعة للسيئات حتى إذا قالوا ذلك عند كل وضوء كان الاستغفار والتوبة من القلب حقاً. وهذه

قاعدة هامة أريد إثباتها، وهي أنّ الرسول ﷺ إذا أمر بذكرٍ أو دعاءٍ فهو يأمر بأمرين في ذات الأمر؛ الأول: قول هذا الذكر والدعاء مع التدبر لمعانيه. الثاني: الأخذ بالأسباب التي تعين القلب على تدبر هذه المعاني حتى إذا قاله المؤمن كان ذاكراً داعياً حقاً، فإنّ الدعاء لا يُقبل إلّا من المستحضِرين بخلاف الغافلين اللاهين، كما أخبر الرسول ﷺ.

ـ وفي ذلك دليلٌ على صحة قول مَنْ قال مِن الصالحين بأنّ دوام استحضار السيئات من أكبر أسباب الخشوع في الصلاة. فلله ما أحلاها من صلاةٍ تلك التي يدخل فيها العبد وهو يستشعر ذنوبه وخطاياه فيصلِّي طالباً بصلاته المغفرة ويصلي وهو في صلاته مستحضراً الخطايا والذنوب!!

ـ وقد أشار الرسول ﷺ إلى عظيم أهمية استحضار الذنوب لمن أراد الخشوع في أكثر من موطن، فهذا موطن. وأشار إلى ذلك أيضاً بقوله ﷺ: «**ما منكم رجلٌ يقرب وضوئه فيمضمض، ويستنشق فيستنثر إلّا خرت خطايا**

وجهه من فيه وخياشيمه ثمّ إذا غسل وجهه كما أمره الله إلّا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثمّ يغسل يديه إلى المرفقين إلّا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء ثمّ يمسح رأسه إلّا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثمّ يغسل رجليه إلى الكعبين إلّا خرت خطايا رجليه مع أنامله مع الماء، فإن هو قام وصلّى فحمد الله تعالى وأثنى عليه ومجدّه بالذي هو له أهلٌ، وفرّغ قلبه لله تعالى إلا انصرف من خطيئته كيوم ولدته أمه» (رواه مسلم). ففي هذا تنبيهٌ على أهمية استحضار الذنوب عند الوضوء وطلب المغفرة والعفو عنها بالوضوء وبالصلاة. فأيُّ صلاحٍ للقلب يكون مع عظيم الاستحضار للخطأ والزلل!! وأيُّ استحياءٍ هذا الذي يُرزَقه العبد إذا دخل المسجد أو وقف بين يدي الله وهو مستحضرٌ لخطاياه وذنوبه!! ففي هذا دليلٌ لصحة قول مَنْ حث على استحضار الاستحياء من الله بسبب الذنوب عند دخول المسجد، وأورد في ذلك ما رواه الإمام أحمد في كتاب

الزهد: «أنّ رجلاً فيمن قبلنا أراد أن يدخل المسجد فقام على باب المسجد وقال: أومثلي يدخل بيت الله!! فأوحى الله إلى نبيه أني قد كتبتُ فلاناً في مكانه صديقاً» فهذا الأثر رغم ضعف سنده لكن هذا الحياء لابد وأن يتواجد في قلب العبد إذا استحضر خطاياه كلّ وضوءٍ في أثنائه وبعده وفي صلواته كما سيأتي إن شاء الله.

ـ وقد أشار ﷺ كذلك إلى هذا المعنى في قوله في دعاء الاستفتاح: «**وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض** ... إلى أن قال: **سبحانك وبحمدك، وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسي، واعترفتُ بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» (رواه مسلم).

وبقوله في دعاء الاستفتاح في دعاءٍ آخر: «**اللهمّ باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهمّ نقني من خطاياي كما يُنقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدنس، اللهمّ اغسلني مِن خطاياي بالماء والثلج والبرد**» (رواه البخاري ومسلم).

وبقوله في دعاء استفتاح قيام الليل: «**اللهم لك الحمد .... إلى أن قال: فاغفر لي ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلمُ به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخر**» (رواه البخاري ومسلم).

وبقوله بعد الرفع من الركوع: «**اللهمّ لك الحمد، مِلءَ السموات، ومِلءَ الأرض، ومِلءَ ما شئت من شيء بعدُ، اللهمّ طهرني بالثلج والبرد والماء، اللهمّ طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقَّى الثوبُ الأبيض من الدنس**». (رواه مسلم)

وبقوله في الركوع والسجود: «**سبحانك اللهمّ ربنا وبحمدك، اللهمّ اغفر لي**» (رواه البخاري ومسلم).

وبقوله في السجود: «**اللهمّ اغفر لي ذنبي كُلَّه، ودِقَّه وجِلَّه، وأولَه وآخِرَه، وعلانيته وسِرَّه**» (رواه مسلم).

وبقوله بين السجدتين: «**رب اغفر لي**» (رواه ابن ماجه وأبو داود وحسنه الألباني).

فأيُّ قلبٍ مع هذه المداومة لا تلين قسوته؟!! وقد قال عمر ـ كما رواه في الحلية ـ: «جالسوا التوابين فإنهم أرق الناس أفئدةً». **إخواني** ... أكثروا من ذكر سيئاتكم طوال يومكم حتى إذا قال أحدكم في صلاته «رب اغفر لي» أو دعا بالمغفرة أو تاب كان خاشعاً متدبراً لما يقوله. صلّوا صلاة تائب لا صلاة معجب ... صلُّوا صلاة مذنب مقصر لا صلاة مُدلٍّ ... صلُّوا صلاة رغبةٍ ورهبةٍ، والله المستعان.

تنبيهات:

١- روى ابن ماجه وحسنه الألباني أنّ النبي ﷺ كان يدعو بين السجدتين فيقول: «**رب اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني**» وهو دعاءٌ عظيمٌ جداً؛ فإنّ طلب المغفرة يتضمن العفو عمّا مضى من الخطأ والزلل، وطلب الرحمة يتضمن العصمة فيما هو آتٍ من الزلل، وطلب الجبر يتضمن إزالة انكسار النفس المانع من الطاعة والاستقامة فإنّ الإحساس بالفشل يقعد العبد

عن الخير. وأمّا الانكسار الذي يورث القلب التواضع لله وعدم العجب، بل يفتقر إلى ربه ويتوكل عليه، فهو من أعظم فوائد ابتلاء المؤمن بالذنب. وأمّا طلب الهداية فيتضمن التوفيق للعلم والعمل في المستقبل ففيهما عصمة من الزلل والخطأ، كما أنّ فيه طلب المزيد من العلم والعمل، فكم من خيرٍ لا يعلمه العبد وما يعلمه لا يعمل بأكثره، فالتوفيق للعلم والعمل بيد الله وحده. وأمّا طلب الرزق فهو سؤال الرزق الذي يكفي المرء لنفقته ونفقة من يعول حتى لا يحتاج إلى السؤال، فالمشغول برزقه لا يكاد يتفرغ قلبه للطاعة.

٢- قال ﷺ لأبي بكر الصديق لما سأله دعاءً يدعو به في صلاته: «**قل: اللهمّ إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلّا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**». وهو حديثٌ عجيبٌ ولكن فيه علمٌ جمّ من علوم الزهاد والعباد. والعجيب فيه أنّ أبا بكر هو صدّيق الأمة الأكبر وأفضل رجلٍ بعد الأنبياء، فكيف يُقال له: «**قل اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلماً**

كثيراً» فما هذا الظلم الكثير؟!! وماذا يقول أمثالنا؟ ولا يصح أن يُقال إنما علّمه الرسول ذلك ليتواضع على الدوام، فإنّ دعاء الذي يستشعر أنه بدعائه يتواضع لله لا يكون الخشوع والخضوع فيه على وجه الكمال، وهذا دعاء يعلمه الرسول ﷺ أن يقوله في كل صلاةٍ ـ فريضةً كانت أو نفلاً ـ ومعلوم أنّ العبد مأمورٌ بالتدبر والتأمل لما يقوله في صلاته من ذكرٍ ودعاءٍ، وأبو بكر رضي الله عنه أخشع الناس في صلاته بعد رسول الله ﷺ، فلا يصح إذاً أن يُقال إنّما قاله له ليتواضع على الدوام ولكن جواب هذا الإشكال من وجهين:

١- أنّ أبا بكر لعظيم إيمانه سيستعظم كل خطأ في حق الله، ولو قلّ؛ فإنّ معصية العظيم عظيمة. وكلما زاد إيمان العبد كلما زاد استعظامه لخطئه، ولذا كان الأنبياء والرسل يستغفرون من فعل خلاف الأولى والمكروه حتى ما فعلوه نسياناً كانوا يستغفرون منه.

٢- أنّ هذا تنبيهٌ لأبي بكر ـ وغيره مثله بل أولى ـ أنّ الخواطر التي لا تكاد تنفك عنها نفسٌ من خواطر رياء أو

عجب أو غيرها لا ينبغي أن تُهمل بل تُجعل سبباً لمعرفة تقصير النفس في حق الله فينتفي العجب بالكلية ويتحقق التواضع والافتقار إلى الله على وجه الكمال. وهذا هو المذهب الوسط في هذه الخواطر. فبعض الناس شغل نفسه بدفعها فأضاع وقته وجهده سُدىً فإنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق ولا انتهاء لوسوسته بالكلية وبعضهم أهملها بالكلية فالمذهب الوسط إذاً هو اتخاذ هذه الوساوس مخوفاً للنفس حتى لا تطمئن إلّا إلى ربها. ولذلك كان عمر يشك في إخلاصه في الأعمال حقيقةً لا مجرد تواضع وكان يستحلف حذيفة ـ صاحب سرّ رسول الله ﷺ ـ هل سمّاني رسول الله لك فيمن سمّى من المنافقين. وكان ابن مسعود يقول حقيقةً لا مجرد تواضع: «لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني منكم أحد». والظاهر ـ والله أعلم ـ صحة السببين معاً.

٣- قال ﷺ: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهمّ أنت ربي لا إله إلّا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على**

عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت» وهو دعاءٌ عظيم فيه معانٍ إيمانية عظيمة جديرٌ بمن تأمّلها أن يجد حلاوة الإيمان في قلبه، فقوله: «**اللهمّ أنت ربي**» فيه توسلٌ إلى الرب بربوبيته، فكأنّ التائب يقول: يا رب أنت ربي الذي خلق نفسي وركّب طباعها ويعلم تسلط الشيطان عليها، فاعذرني في خطئي وكن معي وانصرني عليه وعلى نفسي الأمّارة بالسوء.

وقوله: «**لا إله إلّا أنت**» أي تقصيري في أمرك ليس عن إنكارٍ مني لشرعك، بل لا إله يشرِّع إلا أنت، رضيت بحكمك وبشرعك وبدينك لا إله إلا أنت. كما أنّ اعتذاري إليك بأنّ نفسي التي عصتك هي خلقٌ من خلقك وقد كتبت عليه العصيان، وليس ذلك منّي رفعاً للملامة عن نفسي بل لا إله إلّا أنت تأمر وتنهى كما تشاء كما أنّه لا رب سواك تخلق ما تشاء، فهذا جمعٌ بين الخلق والأمر، والقدر والشرع.

وقوله: «**خلقتني وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**» أي أنا أحاول وأجتهد في التخلص من عيوبي ولكن بعضها لا أستطيع تركه مهما أحاول بل ربما لا أجد في نفسي العزيمة على الترك ـ مع كراهتي لحالي ـ وهذا قدر استطاعتي، وأنت خلقتني تعلم أنّ هذا هو قدر استطاعتي. فالاستغفار الكامل إذاً هو الذي يتضمن الاجتهاد في ترك المعصية قدر الطاقة فإذا وجد العبدُ العجزَ كان التضرع والابتهال إلى الله سبحانه، والدعاءُ حينئذٍ دعاءُ مضطرٍ، ودعاء المضطر مستجاب.

وقوله: «**أعوذ بك من شر ما صنعتُ**» أي ما أنا فيه من العجز عن الخير لا يعني أنّي أظنّ رفع المسئولية عني بل عملي السيئ وسوء نفسي هو السبب في ذلك، فالخير كلّه في يديك والشر ليس إليك، فأعذني يا رب من شر أعمالي السيئة ومن سوء نفسي التي تسبب في عجزي عن بعض الخير.

وقوله: «**أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي**» أي ليس حرماني من الطاعة لبخلٍ منك بل نِعمُك علي

وخيرك النازل إليّ لا يُعدُّ ولا يحصى ولكن هو ذنبي الذي أبوء وأعترف لك به، هو الذي حرمني هذا الخير منك، فاغفر لي. ويتضمن كذلك التوسل إلى الله بكرمه، فكأنه يقول له: يا رب كم من نعمةٍ أنعمتها عليّ وأنت الكريم الجواد، فجدْ عليّ بتوفيقي إلى الخير واغفر لي ذنبي. «كما حكى ابن الجوزي في صيد الخاطر عن فقيرٍ دخل على غني، فقال له: أنا الذي فعلت معي كذا وكذا، وفعلت معي كذا وكذا، وفعلت معي كذا وكذا، فقال الغني له: مرحباً بمن يتوسل إلينا بكرمنا، وأعطاه وأجزل له العطاء».

وقوله: «**إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» أي أنا المقصر العاصي المخطئ المذنب، ولكن من أستغفر وأدعو إن لم أستغفرك وأدعوك أنت؟؟ ولا يغفر الذنوب إلا أنت!!

فحُقَّ لهذا الدعاء العظيم الجليل أن يكون سيد الاستغفار وحُقَّ لمن تفهمه أن يجد حلاوة الإيمان وبرد اليقين وسعادة الرضا عن الله والفرح به والثقة فيه في

قلبه. وصلى الله على نبينا محمدٍ الذي علّمنا كلَّ خيرٍ وعلى آله وسلَّم تسليماً كثيراً.

ـ وتأمّل قول النبي ﷺ وهو يشير إلى أهمية استحضار الذنوب والتوبة منها في الصلاة وبالصلاة، فقال لأصحابه: «**تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الصبح غسلتها، ثمّ تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثمّ تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها، ثمّ تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثمّ تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها**» (رواه الطبراني وحسنه الألباني). وقوله «تحترقون» أي بالذنوب وقال لهم أيضاً: «**الصلوات الخمس كفارةٌ لما بينها**» (رواه البزار وحسنه الألباني). وقال لهم كذلك: «**مثل الصلوات الخمس كمثل نهرٍ جارٍ غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات**» (رواه مسلم). وقال كذلك: «**إنّ المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثمّ صلى الصلوات الخمس، تحاتت خطاياه كما تحات ورق هذه الشجرة**»

(رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني). وقال كذلك: «**إنّ العبد إذا قام يصلي أُتي بذنوبه كلها، فوضعت على رأسه وعاتقيه، فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه**» (رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: ١٦٧١).

وقال كذلك لهم: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد، فإنه من وافق قولُه قول الملائكة غفر له ما تقدَّم من ذنبه**» (رواه البخاري ومسلم).

وقال لهم كذلك: «**إذا قال الإمام: غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقولوا: آمين، فإنه من وافق قولُه قول الملائكة غفر له ما تقدَّم من ذنبه**».

(رواه البخاري ومسلم)

فباللهِ كيف تكون صلاة من طلب المغفرة وهو قائم قبل قراءته وفي قراءته وفي الركوع وبعد الرفع من الركوع وفي السجود وبين السجدتين وبعد التشهد قبل التسليم؛ فإنّ الراجح ـ والله أعلم ـ أنّ الدعاء الذي علمه الرسول لأبي بكر أن يقوله في صلاته إنما كان يقوله قبل التسليم؟!!

ألا واللهِ إنها لصلاةٌ عظيمةٌ تلك التي تُطلب فيها وبها المغفرة!!

ـ وأمّا قوله في دعاء الوضوء: «**سبحانك اللهم وبحمدك**» ففيه تنبيهٌ على أهمية الحمد وعظيم أثره في إصلاح القلوب عموماً وفي الخشوع في الصلاة خصوصاً. وقد نبّه ﷺ على أهمية هذا الحمد في أكثر من موطن أيضاً كما فعل في الاستغفار، فكان يقول في دعاء الاستفتاح: «**سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمُكَ وتعالى جَدُّكَ ولا إله غَيْرُكَ**» (رواه أحمد وصححه الألباني). وفي دعاء التهجد: «**اللهمّ لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمدُ، أنت قيمّ السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد، أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد، أنت الحق ووعدك الحق ....**» (متفقٌ عليه).

وأوجب على كل مسلم يصلي في كل ركعة أن يقرأ سورة الحمد (سورة الفاتحةً)، فقال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بأمّ الكتاب**» (رواه البخاري ومسلم).

وكان يقول أثناء الركوع: «**سبحانك اللهمّ ربنا وبحمدك، اللهمّ اغفر لي**» (رواه البخاري ومسلم).

وكان يقول بعد الرفع من الركوع: «**اللهمّ ربنا ولك الحمد**» (رواه البخاري ومسلم). ويقول: «**ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، مباركاً عليه، كما يحب ربنا ويرضى**» (رواه أبو داود وصححه الألباني وأصله متفقٌ عليه).

ويقول: «**ربنا لك الحمد، مِلء السماوات، ومِلءَ الأرض، ومِلءَ ما بينهما، ومِلءَ ما شئت من شيء بعدُ**» (رواه مسلم)، وكان ربما يقول: «**لربي الحمد، لربي الحمد ويكررها في قيام الليل طويلاً**» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

وكان يقول في سجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»، كما تقدم.

ـ وفي هذا تنبيهٌ منه ﷺ على أهمية حمد الله في الصلاة مع التدبر، وعلى أهمية دوام استحضار نعم الله على العبد، وإلّا فالحمدُ عن قلبٍ لاهٍ غافلٍ ليس هو المراد ولا المأمور به، ولن يتدبر عبدٌ حق التدبر عند حمده لله في

صلاته وفي غيرها إلّا إذا أكثر من ذكر نعم الله عليه، وقد أمر الله بذلك فقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ٦٩)، فعلّق الفلاح على ذكر آلاء الله. وقال أيضاً: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل: ١١٤). فللهِ خشوعُ وإخباتُ قلبٍ كان في صلاته بين ذكر سيئاته وذكر نعم ربه عليه؟!! قال رجلٌ لأبي تميمة: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل: ذنوبٍ سترها الله فلا يستطيع أن يُعيِّرني بها أحد، ومودةٍ قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي. وسئل أحدُ الصالحين: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت وبنا من نعم الله ما لا يُحصى، مع كثير ما يُعصَى، فلا ندري على ما نشكر: على جميل ما نَشَر، أو على قبيح ما ستَر؟!.

وقال ﷺ: «**فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإنّ الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت**» (رواه الترمذي وصححه الألباني). وفي ذلك تنبيهٌ على أهمية استحضار هذا المعنى في الصلاة، فيستحضر المصلي أنه إنما يناجي

ربه ويخاطبه، ينظر إليه ربه وهو ينظر بقلبه إلى ربه، هو في حضرة الملك العظيم الجليل والملك يمنّ عليه بالعطايا الجليلة، قال ﷺ: «**يقول الله عزّ وجل: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ فنصفها لي ونصفها لعبدي؛ ولعبدي ما سأل. يقرأ العبد فيقول:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. **فيقول الله تبارك وتعالى: حمدني عبدي. فيقول:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. **فيقول الله: أثنى عليّ عبدي. فيقول:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. **فيقول: مجدني عبدي. فيقول:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. **فيقول: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فيقول:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. **فيقول: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**» (رواه مسلم). وقال ﷺ: «**إنّ أحدكم إذا قام يصلي إنما يقوم يناجي ربه، فلينظر كيف يناجيه**» (رواه مسلم).

فالعبد يتلو كتاب ربه ويركع له ويسجد له؛ ينتقل من لذةٍ إلى لذة ومن عبادة إلى عبادة، والرب يتفضل عليه

بالهداية والقبول والتوفيق؛ بالرحمة والمغفرة والرضوان، فيالها من صلاةٍ تلك التي يكون فيها هذا هو حال العبد!! قال مسروق: ما بقي شيء يُرغب فيه إلّا أن نُعفِّر وجوهنا في هذا التراب لله. وقال سعيد بن جبير: ما آسى على شيء من الدنيا إلّا على السجود. وقال أبو سليمان الداراني: أهل الطاعة بطاعتهم ألذّ من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحببتُ البقاء.

وقال ابن رجب في لطائف المعارف: قال بعضهم: منذ أربعين سنة ما أحزنني إلّا طلوع الفجر. وقال ثابت البناني: كابدتُ قيام الليل عشرين سنة وتنعمتُ به عشرين سنة أخرى. وكان أبو سليمان الداراني يقول: أهلُ الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم. ما عند المحبين ألذ من أوقات الخلوة بمناجاة محبوبهم فهو شفاء قلوبهم ونهاية مطلوبهم. وكان داود الطائي يقول في الليل: همّك عطّل عليّ الهموم وحالف بيني وبين السهاد وشوقي إلى النظر إليك أوثق مني اللذات، وحال بيني وبين الشهوات. من لم يشاركهم في هواهم ويذوق

حلاوة نجواهم، لم يدر ما الذي أبكاهم. وقال سري السقطي: رأيتُ الفوائد ترد في ظلمة الليل. ماذا فات من فاته خير الليل فنام!! لقد حصل أهل الغفلة على الحرمان ... يا قوّام الليل اشفعوا في النوّام، يا أحياء القلوب ترحموا على الأموات ... وقال معاذ عند موته: إنما أبكي على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر. اهـ.

إنها صلاة التضرع والمسألة والابتهال والمسكنة؛ قال مزاحم بن زفر: صلّى بنا سفيان الثوري المغرب، فقرأ حتى بلغ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) بكى حتى انقطعت قراءته، ثمّ عاد فقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)».

وقال محمد بن عوف الحمصي: رأيت محمد بن أبي الحواري عندنا بطرسوس، فلما صلى العتمة قام يصلي،

فاستفتح بالحمد إلى قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فطفت الحائط كله ثم رجعت فإذا هو لا يجاوز ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ثم نمت ومررت به سحراً وهو يقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، فلم يزل يرددها إلى الصبح.

ـ وانظر إلى النبي ﷺ وهو يتضرع إلى ربه في صلاته من أولها إلى آخرها تضرع المسألة والثناء معاً، فيقول في دعاء الاستفتاح: «**وجَّهتُ وجهيَ للذي فَطَرَ السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إنَّ صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين، لا شريك له، وبذلك أُمِرْتُ، وأنا أوَّلُ المسلمين. اللهمّ أنت الملكُ، لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، أنت ربي، وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسي، واعترفتُ بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يَهْدِي لأحسنها إلا أنتَ، واصرِفْ عني سَيِّئَها، لا يَصْرِفُ عني سيئها إلا أنتَ، لبيكَ وَسَعْدَيْكَ والخيرُ كله في يديك، والشَّرُّ ليس إليك، والمهْدِيُّ من هَدَيْتَ، أنا بك**

وإليك، لا مَنْجا ولا ملجأَ مِنك إلا إليك، تباركتَ وتعاليتَ، أستغفرُك، وأتوبُ إليك» (رواه مسلم).

ويقول أيضاً في الاستفتاح: «اللهمّ باعِدْ بيني وبين خطاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب، اللهمّ نَقِّني مِنْ خطاياي كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَسِ، اللهمّ اغْسِلني مِنْ خطاياي بالماءِ والثلج والبَرَدِ» (رواه البخاري ومسلم).

وربما قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمُكَ، وتعالى جَدُّكَ، ولا إله غَيْرُكَ» (رواه أحمد وصححه الألباني).

وربما قال: «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحانَ الله بُكْرَةً وأصيلاً» (رواه البخاري ومسلم).

وفي التهجد يقول: «اللهم لك الحمدُ، أنت نورُ السمواتِ والأرضِ وَمَنْ فِيهنَّ، ولك الحمدُ، أنت قَيِّمُ السمواتِ والأرضِ وَمَنْ فِيهنَّ، ولك الحمد، أنتَ مَلِكُ السمواتِ والأرضِ وَمَنْ فِيهنَّ، ولك الحمدُ، أنت الحقُّ ووعدُك حَقٌّ، وقولُك حقٌّ، ولِقاؤك حَقٌّ، والجنةُ حق، والنارُ حق، والساعةُ حق، والنبيون حَقٌّ، ومحمدٌ حَقٌّ،

اللهمّ لك أسلمتُ، وعليك توكلتُ، وبك آمنت، وإليك أَنَبْتُ، وبك خَاصَمْتُ، وإليك حاكمتُ، أنت رَبُّنا، وإليكَ المصير، فاغفر لي ما قَدَّمْتُ، وما أَخَّرْتُ، وما أسررتُ، وما أَعْلنْتُ، وما أنت أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أنت المقدِّمُ، وأنت المُؤخِّرُ، أنت إلهي، لَا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك» (رواه البخاري ومسلم).

ويقول في ركوعه: «**سبحانَ ربيَ العظيم**». ويقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدِك، اللهم اغفر لي**». ويقول فيهما أيضاً: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكةِ والرُّوح**».

أو يقول: «**سبحانَ ذي الجبروتِ والملكوتِ، والكبرياءِ والعظمة**». وكان يدعو في ركوعه فيقول: «**اللهم لك ركعتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، أنت ربي، خَشَعَ لك سمعي وبصري، ومخي وعَظمي وعَصَبي، وما استَقَلَّتْ به قَدَمي لله رَبِّ العالمين**» (رواه مسلم وأبو عوانة).

ويقول: «**اللهم لك ركعتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، وعليك توكلتُ، أنت ربي، خَشَعَ لك سمعي وبصري، ودمي ولحمي، وعَظمي وعَصَبي لله رَبِّ العالمين**» (رواه النسائي وصححه الألباني).

ويقول إذا استوى قائماً بعد الرفع من الركوع: «**رَبَّنا لك الحمدُ**» (رواه البخاري). أو: «**رَبَّنا ولك الحمدُ، حَمْداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، مباركاً عليه، كما يُحِبُّ رَبُّنا ويرضى**» (رواه البخاري). أو: «**رَبَّنا لك الحمدُ، مِلْءَ السمواتِ، وَمِلْءَ الأرضِ، ومِلْءَ ما بينهما، ومِلْءَ ما شِئْتَ مِنْ شيءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثناءِ والمجدِ، أَحَقُّ ما قال العَبْدُ، وَكُلُّنا لك عَبْدٌ، اللهم لا مانِعَ لما أعطيتَ، ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ مِنْك الجَدُّ**» (رواه مسلم). أو: «**اللهمّ لك الحمدُ، مِلْءَ السمواتِ، ومِلْءَ الأرضِ، ومِلْءَ ما شِئْتَ مِنْ شيءٍ بَعْدُ، اللهمّ طَهِّرْني بالثلج والبَرَدِ والـماءِ البارد، اللهمّ طهرني من الذنوب والخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ مِنَ الدَّنَسِ**» (رواه مسلم). أو يقول: «**لِرَبِّيَ الحمدُ، لِرَبِيَ الحمدُ**»

ويُكررها في قيام الليل طويلاً. (رواه أبو داود وصححه الألباني).

ويدعو في سجوده فيقول: «**اللهم اغفر لي ذنبي كُلَّه، ودِقَّه وجِلَّهُ، وأولَه وآخِرَه، وعلانِيَتَهُ وسِرَّه**» (رواه مسلم).

ويقول أيضاً: «**اللهم إني أعوذُ برضاكَ من سَخَطِكَ، وأعوذ بمعافاتِكَ مِن عُقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسِكَ**» (رواه مسلم).

ويقول: «**اللهم لك سجدتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، وأنت ربي، سجد وجهي للذي خَلَقَهُ وصَوَّرَهُ، فأحسنَ صُوَرَهُ، وشَقَّ سَمْعَهُ وبَصرَهُ، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين**» (رواه مسلم).

ويقول: «**سَجَدَ لك سَوادي وخيالي، وآمَنَ بك فؤداي، أبوءُ بنعمتِك عَلَيَّ، هَذِي يَدِي، وما جَنَيْتُ عَلَى نفسي**» (رواه الحاكم وصححه الألباني).

ويقول في قيام الليل: «**اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري**

نوراً، واجعل مِنْ تحتي نوراً، واجعل من فوقي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، واجعل أمامي نوراً، واجعل خلفي نوراً، واجعل في نفسي نوراً، وأعظِم لي نوراً» (رواه مسلم).

ـ وقد نبّه ﷺ على أنّ التضرع في السجود أكثر منه في الركوع، فقال: «**أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**» (رواه مسلم)، وقال: «**وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنٌ أن يُستجاب لكم**» (رواه مسلم).

فجديرٌ بمن علم ذلك أن يُدمن الدعاء في السجود، وليكن دعاؤه بإصلاح القلوب والنفوس والنجاة من النار ودخول الجنة. وقد أبان ﷺ أهمّ ما يُطلب في الصلاة وبالأولى في غيرها، فقال: «**إذا تشهد أحدكم فليتعوذ من أربع: من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال، ثمّ يدعو لنفسه بما شاء**» (رواه النسائي وصححه الألباني)، فجعل أهمّ الدعاء التعوذ من هذه الأربع. واعلم أنّ الأمر بالتعوذ

بالله من هذه الأربع لا يعني مجرد التلفظ بهذه الاستعاذة دون تدبرٍ لها وخضوعٍ عند الاستعاذة. وهذا التدبر والخشوع والخضوع لا يكون إلّا ممّن أكثر من ذكر القبر وجهنّم وفتن المحيا والممات وفتنة الدجال، فالأمر بالاستعاذة من هذه إذاً يتضمن الأمر بالإكثار من التفكر فيها حتى إذا استعاذ بالله منها في كل صلاةٍ كان متدبراً. وفي ذلك أيضاً تنبيهٌ على عظيم أثر التفكر في هذه الأمور على صلاح قلب العبد واستقامته، فعلى المؤمن أن يكثر من التفكر في هذه الأمور وعليه الأخذ بأسباب اتعاظ القلب عند تفكره فيها كقراءة تفسير الآيات والأحاديث التي فيها ذكر الجنة والنار والقبر والمسيح الدجال، وأمّا فتنة المحيا فهي الفتنة بالأهل والمال والولد وبالدنيا عموماً وقد تشمل كذلك ما يحاوله الشيطان من إضلال العبد عند وفاته ليردَّه عن الإسلام وقد استعاذ من ذلك الرسول ﷺ فقال: «**وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت**» (رواه أبو داود وصححه الألباني)، وأمّا فتنة

الممات فهي فتنة الشيطان عند الموت وقد تشمل كذلك فتنة عذاب القبر، فإنّ عذاب القبر غير فتنة القبر ولذا استعاذ الرسول منهما معاً فقال: «**أعوذ بك من فتنة القبر ومن عذاب القبر**» (رواه البخاري ومسلم)، وقد تشمل أيضاً ما بعد الموت من أهوال يوم القيامة وكرباته. وقد تشمل كذلك التعوذ من التشديد في سكرات الموت وكرباته حتى يُفتن العبد، وأمّا التشديد في سكرات الموت مع تثبيت الرب لعبده، فهو سببٌ لتكفير سيئاته.

وقد أبان ﷺ فائدة الإكثار من ذكر الموت وعظيم أثر ذلك في خشوع القلب وإخباته في صلاته، فقال: «**اذكر الموت في صلاتك، فإنّ الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحري أن يحسن صلاته، وصلِّ صلاةَ رجلٍ لا يظن أنه يصلي غيرها**» (الصحيحة: ١٤٢١). وقال: «**إذا قمت في صلاتك، فصلِّ صلاة مودع**» (الصحيحة: ٤٠١). وذِكْرُ الموت في الصلاة إنما ينفع مَنْ أكثر مِن ذكر الموت، وأكمل الهدي في ذلك قول **ابن عمر** لمجاهد: «**إذا**

أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح» (رواه البخاري).

ـ وقد أبان كذلك ﷺ سبباً عظيماً من أسباب الخشوع في الصلاة، فقال: «**أول ما يحاسب به العبدُ يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح له سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله**» (الصحيحة: ١٣٥٨)، فبيّن أنّ صلاح المرء سببٌ وعنوانٌ على صلاح سائر عمله، ولا يصلح العمل بغير صلاح القلب، فكأنّ الحديث ـ كما يدل على أنّ العمل يقبل يوم القيامة إذا قُبلت الصلاة ـ يدل على أنّ القلب يصلح في الدنيا ويصلح معه سائر العمل إذا صلحت الصلاة، فجديرٌ بالعبد أن يجعل إتقانها وتحسينها هو أكبر الهمّ؛ **قال الإمام أحمد**: «إنما قدرهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة، فاعرف نفسك يا عبد الله، واحذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك؛ فإنّ قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك». فمن

علم عظيم قدر الصلاة اجتهد في الخشوع فيها وإتقانها إن كان عاقلاً.

ـ وقد أبان كذلك ﷺ عظيم حاجة القلب إلى الصلاة، فقال: «**مثل الذي لا يتمّ ركوعه وينقر في سجوده، مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين، لا يغنيان عنه شيئاً**» (صحيح الجامع: ٦٤٩). فبيَّن أنّ حاجة المصلي وحاجة قلبه إلى الصلاة كحاجة الجائع إلى الطعام الأساسي الذي لا يُستغنى عنه. فالصلاة غذاء القلب والروح، وعلى المؤمن أن يتخذها كذلك وسبيلُ ذلك هو المداومة عليها والإكثار منها وكلما نزلت بالمرء نازلة فزع إلى صلاته؛ قال ﷺ: «**كانوا إذا فَزِعوا فزعوا إلى الصلاة يعني: الأنبياء**» (الصحيحة: ٣٤٦٦)، فمن داوم على هذا الهدي تعلّق قلبه بالصلاة ولو بعد حين.

ـ وأخبر ﷺ بعظيم قيمة الخشوع في الصلاة وأنّ مَنْ حصَّله كان قد حصَّل كنزاً من الكنوز العظيمة، فليحافظ عليه من السُّرَّاق، فقال لما سُئل عن الالتفات في الصلاة

فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**» (رواه البخاري). فجديرٌ بالعبد أن يعلم قيمة الخشوع. وليعلم أنّ الشيطان حريصٌ على إفساد هذا الكنز عليه بكل ممكن.

ـ وأخبر ﷺ كذلك عن سببٍ كبيرٍ من أسباب الخشوع في الصلاة وهو تولِّي الله ورسله وملائكته وعباده الصالحين، فمن عاش بمنهج الله واتبع رسله وصاحب الصالحين وآمن بالملائكة حق الإيمان استحضر حلاوة الإيمان ووجد في قلبه محبة الله ورسله والملائكة والصالحين، فإذا به يجد للصلاة حلاوةً خاصةً، وقد أبان ﷺ ذلك، فقال: «**يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، يجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثمّ يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**» (متفقٌ عليه).

وقال لمن قال بعد الرفع من ركوعه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال: «**من المتكلم**»، قال: أنا، قال: «**رأيتُ بضعةً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول**» (رواه البخاري)، وقال: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد، فإنّه من وافق قولُه قولَ الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**» (متفقٌ عليه)، وقال ﷺ مثل ذلك فيمن قال: «**آمين مع الإمام**» (رواه البخاري)، والعلم بهذا من شأنه أن يقرِّب العبد من الملائكة ويجعله موالياً لهم محباً، وذلك من أسباب الخشوع في الصلاة. وكذلك الموالاة للصالحين قد أشار إليها ﷺ بقوله: «**قواوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتم ذلك أصاب كلَّ عبدٍ في السماء والأرض**» (متفقٌ عليه). وانظر إلى تولِّي الله واستشعار قربه من عبده وهو يصلي، فقال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**» (رواه مسلم). وقد قال تعالى

لنبيه ﷺ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ (العلق: ١٩)، فالقرب يكون بالسجود لله. فمثل هذه الصلاة التي يستحضر فيها العبدُ قربَ ربه وقربه من الملائكة وقربها منه وقربه من الصالحين، يكون فيها الخشوع والسكينة. ولن يتحقق ذلك في قلب العبد حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، وحتى يحب المرء لا يحبه إلّا لله، وحتى يحب لله ويبغض لله ويعطي لله ويمنع لله، فحينئذٍ يجد المرءُ سعادةً حقيقةً وحلاوةً خاصةً بمجاورة الصالحين وقربه منهم بل وبقراءته لسيرهم، فكيف إذا استشعر في صلاته ولايته لهم بدعائه لهم واستجابة دعائه لهم بل وبقرب العبد من الملائكة بل وبقربه من ربه وهو ساجد؛ كيف يكون خشوعه وسعادته حينئذٍ؟!! إنّها والله لصلاةٌ تشغل العبدَ عمّا حوله وعمّن حوله!!

كان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنّه عودٌ من الخشوع وكان يسجد فأتى المنجنيق فأخذ طائفةً من ثوبه وهو في الصلاة لا يرفع رأسه.

وكان مسلمة يصلي في المسجد فانهدم طائفة منه فقام الناس وهو في الصلاة لم يشعر.

وكان ابن الزبير يسجد فتنزل العصافير على ظهره ولا تحسبه إلّا جذع حائط.

وسُرق رداء يعقوب الحضرمي وهو يُصلي ورُدّ إليه ولـم يشعر.

وكان مسلم بن يسار يقول لأهله إذا دخل في صلاته: تحدثوا فلستُ أسمع حديثكم.

وكان علي بن الحسين يصلي فوقع حريق في البيت وهو ساجد، فنودي: النارَ يا ابن رسول الله، فما رفع رأسه حتى طُفئت، فقيل له في ذلك فقال: ألهتني عنها النار الأخرى.

وكان محمد بن نصر المروزي يصلي فيقع الزنبور على بدنه ولا يذبه عن نفسه، وكان يضع ذقنه على صدره فينتصب كأنه خشبة مسنودة.

وقال الربيع بن خيثم: ما دخلتُ في صلاةٍ قط فأهمني فيها إلّا ما أقول وما يُقال لي.

وقيل لعامر بن عبد الله: هل تحدثك نفسك في الصلاة بشيء؟ قال: نعم، بوقوفي بين يدي الله، ومنصرفي إلى إحدى الدارين؛ الجنة أو النار. قيل: فهل تجد شيئاً ممّا نجد من أمور الدنيا؟! فقال: لأن تحتلف الأسنة فيَّ أحبّ إليَّ من ذلك.

ـ وانظر إلى النبي ﷺ وهو يُعلِّم المصلين أنّ طريق خشوعهم خصوصاً وفلاحهم وفلاح قلوبهم عموماً إنّما هو بالإلحاح على الله والتضرع إليه بذلك دون مللٍ أو يأسٍ أو انقطاع، فكان يبتدئ صلاته بأدعية الاستفتاح، ويختمها بأدعية ما قبل التسليم، فكأنك تبتدئ الصلاة راجياً التوفيق والسداد ولا تزال في صلاتك بين تضرعٍ وآخر حتى إذا أوشكت على إنهاء صلاتك ولم تجدَ حلاوة الخشوع ولا حلاوة الإيمان كما ينبغي، فإذا بك يُشرع لك الإلحاح أيضاً والتضرع حتى آخر لحظةٍ في الصلاة، فإنّ الأعمال بالخواتيم، فتأمّل تضرعه ﷺ في دعاء الاستفتاح: «**إنّ صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله**

رب العالمين» (رواه أبو داود وصححه الألباني)، وتضرعه قبل التسليم: «**إذا تشهد أحدكم فليتعوذ من أربع: من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال، ثمّ يدعو لنفسه بما بدا له**» (رواه النسائي وصححه الألباني)، وقال أيضاً: «**إذا صلّى أحدكم، فليبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثمّ ليصل على النبي ثمّ ليدع بما شاء**» (رواه الترمذي وقال: حديث صحيح).

ـ وقد أبان ﷺ كذلك سبباً كبيراً من أسباب الخشوع في الصلاة، وهو الولاء والمحبة لرسول الله ﷺ وآله وإبراهيم عليه السلام وآله، ومعرفة فضلهم وبذلهم لدين ربهم، ولذا كانت صيغ الصلاة على النبي ﷺ الواردة بعد التشهد كلها تشتمل على ذكر النبي ﷺ وآله وإبراهيم وآله. والمتبع لسنة الرسول ﷺ سيجد في قلبه الولاء له ولآله ﷺ ولابد. وكذا المتأمل لقصة إبراهيم عليه السلام وما جرى له ولآله من بلاءٍ في الله يجد في قلبه المحبة لهم ولابد، فحينئذٍ يخشع قلبه حقاً عند ذكرهم والدعاء لهم بعد التشهد.

ـ وتأمّل سؤاله ﷺ في أول صلاته في دعاء الاستفتاح: «**واهدني لأحسن الأخلاق، لا يَهْدِي لأحسنها إلا أنتَ، واصرِفْ عني سَيِّئَها، لا يَصْرِفُ عني سَيِّئَها إلا أنتَ**» (رواه مسلم)، وهذا يدل على عظيم أثر حُسن الخلق في الخشوع في الصلاة وكبير أثر سُوء الخلق في إذهاب الخشوع وقسوة القلب.

ـ وكانت قراءته ﷺ للقرءان الذي تَدَبُّره هو أساس صلاح القلب واستقامة صلاة العبد بل استقامة أعماله الصالحة كلها، كانت قراءته مترسلة متمهلة آيةً آيةً وحرفاً حرفاً، على ما ذكرت أمّ سلمة (سنده ضعيف ولكن معناه صحيح)، ويشهد له حديث حذيفة: «**يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآيةٍ فيها تسبيح سبّح وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوّذ**» (رواه مسلم). ولكون تدبر القرءان هو أساس الخشوع في الصلاة، قال ﷺ لمّا سُئل عن أفضل الصلاة، فقال: «**طول القنوت**» (رواه مسلم).

ـ وفي قوله ﷺ في الركوع والسجود: «**سبحانك اللهمّ وبحمدك، اللهمّ اغفر لي**» (متفقٌ عليه)، وقوله: «**سبوحٌ**

قدوسٌ، ربُّ الملائكة والروح» (رواه مسلم)، وقوله: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**» (رواه أبو داود وصححه الألباني). وقوله في الركوع: «**سبحان ربي العظيم**» (رواه أحمد وصححه الألباني). وفي السجود: «**سبحان ربي الأعلى**» (رواه أحمد وصححه الألباني)، ما يتضمن الحث والإرشاد إلى اتخاذ المرء الأسباب الميسرة لاستحضاره في قلبه عظمةَ ربه وعلوَّه أثناء الصلاة لأنّ الأمر بهذا الذكر في الصلاة هو أمرٌ بتدبره مع الأمر بقوله في نفس الوقت، وإلّا كان ذكراً باللسان المجرد، فتخلو الصلاة عن الخشوع الذي هو لبُّها. فإن قيل: وكيف يستحضر المرء أثناء الركوع عظمة الرب وأثناء السجود علوَّه؟ **قلتُ**: من أكبر أسباب ذلك طلبُ العلم الشرعي ونشره بين الناس. وكذا قراءة القرءان مع تدبره وتأمّل معانيه. وكذا دعوة الناس إلى دين الله والصبر على أذاهم. وكذا التفكر في خلق الله وبديع خلقه. وكذا إطالة الصلاة وتكرار أذكار الركوع والسجود والمداومة على ذلك، فإنّ أثر الذكر على قسوة

القلب كأثر قطرات المياه على الصخرات الصمّ، فمع تكرار ودوام نزول القطرات تتفتت الصخرة.

روى في الحلية عن أويس القرني أنه كان إذا جاء الليل قال: هذه ليلة القيام فيقومها حتى الصباح، فإذا كانت الليلة الثانية قال هذه ليلة الركوع فيقوم حتى إذا ركع لم يرفع رأسه حتى الصباح، فإذا كانت الليلة الثالثة قال هذه ليلة السجود فإذا سجد لم يرفع حتى الصباح.

وروى سفيان الثوري أنه صلى المغرب في الكعبة فلما سلم الإمام قام فصلى فسجد فلم يرفع رأسه حتى أذن المؤذن بالعشاء. وكان ﷺ «**ربما قرأ في صلاة الليل البقرة والنساء وآل عمران في ركعة وكان ركوعه وسجوده وقيامه** (أي من الركوع) **وجلوسه** (أي بين السجدتين) **قريباً من السواء**» (رواه البخاري).

تنبيه هامٌّ :

إكثاره ﷺ من الدعاء ـ تضرع المسألة والثناء ـ تنبيهٌ على أهمية الدعاء في الخشوع في الصلاة. كما فيه الحث

على الإكثار من الدعاء ليلاً ونهاراً حتى يتيسر للمرء التدبر والخشوع عند الدعاء في الصلاة. فقد ذكرنا من قبل أنّ الذكر أو الدعاء الوارد عن النبي ﷺ في السُّنَّة، يتضمن الحثُّ عليه الحثَّ على قوله مع التدبر كما يتضمن كذلك الحث على الأخذ بكل سببٍ يُعين العبد على التدبر والخشوع عند قوله في الصلاة. ومن أكبر أسباب التدبر والخشوع عند الدعاء عموماً وفي الصلاة خصوصاً؛ الإكثار من الدعاء. وكذا قلة الانشغال والانهماك في الشهوات والشبهات فضلاً عن المعاصي. وكذا الإكثار من قراءة القرءان فإنّ القلوب ما نُظِّفت عن وسخ المعاصي بمثل قراءة القرءان مع التدبر. وكذا طلب العلم فهو من أكبر أسباب الخشية والإخبات والإنابة، إن لم يكن أكبرها، ولكن المراد من ذلك إدمان طلب العلم والإقبال على شغل الوقت كليةً به إلّا ما كان في الفرائض والنوافل التي لابد منها.

ـ وكما كانت صلاتُه ﷺ صلاةَ ذكرٍ وثناءٍ وتضرع وإلحاح، كذلك كان حالُه ﷺ بعد صلاته، فكان إذا انتهى

من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**» (رواه مسلم).

ويقول: «**لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، اللهمّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**» (رواه البخاري). ويقول: «**لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير، لا حول ولا قوة إلّا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلّا إياه، له النعمةُ، وله الفضلُ، وله الثناء الحسنُ، لا إله إلّا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**» (رواه مسلم). ويقول: «**اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحبَّ المساكين وأن تتوب عليّ وإذا أردت بعبادك فتنةً فاقبضني إليك غير مفتون**» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

وأمر معاذ بن جبل أن يقول دبر كل صلاةٍ مكتوبة: «**اللهمّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» (رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني).

وأرشد إلى قول: «**سبحان الله ثلاثاً وثلاثين، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين، والله أكبر ثلاثاً وثلاثين، وتمام المائة: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير**» (رواه مسلم).

ـ في حرص النبي ﷺ على استقبال القبلة كلما أمكن أثناء الصلاة دليلٌ على أهمية الارتباط بالكعبة، فقد تواتر عنه ﷺ استقبال القبلة بجسده من أول الصلاة إلى آخرها. **وكان يستقبل بصدور قدميه وبأطراف أصابعهما القبلة وهو ساجد** (رواه البخاري). **وكان يستقبل وهو ساجد بأصابع يديه القبلة** (رواه البيهقي وصححه الألباني). **وكان إذا جلس للتشهد أو بين السجدتين جلس على اليسرى ونصب اليمنى واستقبل بأصابعها القبلة** (رواه النسائي وصححه الألباني). ففي ذلك كله تنبيهٌ على أهمية ربط الأبدان والقلوب بالكعبة. وهذا أمرٌ مشاهدٌ فإنّ الإكثار من الحج والعمرة وربط القلب بهما يزيد الإيمان في قلب العبد ومن ثَمَّ الخشوع في الصلاة وقد أشار النبي

ﷺ إلى ذلك بقوله: «**تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة**» (رواه الترمذي وصححه الألباني)، فقوله: «**ينفيان الذنوب**» يشمل محو سالف الذنب كما يشمل العصمة من الوقوع فيه ولا يكون ذلك إلّا مع زيادة الإيمان.

تنبيهان:

١- سُئل الإمام أحمد عن المراد بوضع اليدين إحداهما على الأخرى حال القيام، فقال: هو ذلٌّ بين يدي العزيز. قال ابن حجر: قال العلماء: الحكمة في هذه الهيئة أنها صفة السائل الذليل وهو أمنع من العبث وأقرب إلى الخشوع.

٢- قال ﷺ: «**إذا صلّى أحدكم إلى سترة فليدن منها، لا يقطع الشيطان عليه صلاته**» (رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني). وقوله: «**لا يقطع الشيطان عليه**» يشمل القطع الحسي بمروره أمامه ويشمل القطع المعنوي بأن يشوش عليه الخشوع.